قراءة تأملية في سفر أيوب[1]

الأب إسحاق أدونيه تمرس

إنطلاقاً من الدراسات الكتابية لسفر أيوب، نجد انه قد كُتب ما بين القرن العاشر والثالث ق.م، لكن أغلب الدراسات تتفق على أنه كُتب في القرن السادس ق.م، في فترة السبي.

سفر أيوب إجابة عن مشكلة ألم البار، بمعنى الألم غير المستحق، وهذه معضلة الإنسان منذ القدم، والحضارة الإنسانية تُشير لها في كتاباتها(المصرية والرافدينية). إننا نستنتج من مقدمة السفر، أن هدف ألم أيوب هو إظهار ثقة الله فيه، "[8:1] فقالَ الرَّبُّ لِلشَّيطان: ((أَمِلتَ بالَكَ إلى عَبْدي أَيُّوب؟ فإِنَّه لَيسَ لَه مَثيلٌ في الأَرْض. إِنَّه رَجُلٌ كامِلٌ مُستَقيم يَتَّقي اللهَ ويُجانِبُ الشَّرّ))". إنه إنسان ثري ناجح أعظم كل بني المشرق، تتفق حياته الداخلية مع مظهره كرجل كامل ومستقيم، يتقي الله ويحيد عن الشر، ولم يكن يعوزه شيء حسب الظاهر، فكانت حياته تمثل البركات النموذجية للحياة من الغنى والكرامة والصحة والأسرة، فهو في هذا نموذج كامل يؤكد صحة الحكمة الراسخة من أن البر والحكمة مترادفان، ويظهر ذلك بوضوح في المكافأة المنظورة، بمعنى أن السفر لا يتحدث في نص مُباشر عن استقامة وكمال أيوب، لكن بما أن الحكمة هي مخافة الله، أي طاعة التوراة (الشريعة)، وأن أيوب مكمل لهذه الشريعة فهو مستقيم وكاملٌ.

لذا نجد أن السفر يعطينا لمحة عن قلب أيوب، وموقفه الثابت في عبادته للرب، واهتمامه العطوف بأولاده، لئلا يكونوا قد اخطأوا إلى الرب، وهكذا نستطيع أن نرى لا أيوب فقط، بل أيضاً الحكمة التي تجسدت فيه، قد تعرضت لأعظم امتحان. لكن الله أحبنا، وبادرنا، ودخل تاريخنا الإنساني، عندما صنع معنا عهداً في سيناء، لكن السؤال الذي يُطرح دائماً، هل نحن نثق كما هو يثق بينا؟ ربما المحور الأساسي في هذه العلاقة هي الثقة والثقة المُطلقة، بغض النظر عن أستحقاق الإنسان أم لا، الله ثابت، لكن الإنسان مُتغير ومتقلب ومتزعزع. كيف يمكن أن نؤمن بالله، مصدر كل الخير، ونجعل منه مصدراً للشر أيضاً؟ (التفكير الإنساني، مبني على اعتبار ان كل ما ليس من صالحه، شرّاً). حتى الإنسان المعاصر يفكر في إلهٍ لهُ منفعة، يتبادل معه المنفعة لذا يقول، " [9:1] فأَجابَ الشَّيطان وقالَ لِلرَّبّ: أَمَجَّانًا يَتَّقي أَيُّوبُ اللهَ؟".

[1] قراءة سفر أيوب قبل قراءة هذا التأمل. لأنّ التأمل هو اختصار لأهم الأحداث والفصول بصورة إيجازيه مع مطابقتها بشخصية القارئ ومدى تفاعله مع النص الكتابي.

وهكذا تبلورت وعلى مرّ الزمن، نظرة الإنسان القاصرة في هذا المستوى، ونتيجة للتحديات المعاصرة للإيمان، تولدت نظرة تجعل من عبادة الله، عبادة منفعية مشروطة، وتزخر النصوص الكتابية بما يثبت ذلك وبوضوح.

البعد الفكري والحكمي الإنساني واضح عند أيوب، أيوب لا يقصد الحكمة من أجل الحكمة، لكن قصده التفكير في الله وإعلاناته للإنسان، "[28:28] وقالَ لِلْبَشَر: ها إنَّ مَخافَةَ الرَّبِّ هيَ الحِكمَة واجتِنابَ الشَّرِّ هو الفِطنَة". إذاً، لماذا لا يثق الإنسان بنفسه؟ لماذا يبحث عن الجواب من الخارج وليس من الداخل (الذات)؟ جواب أيوب في كلا الخطابين هو قصير، والسبب أن أيوب يعترف ضمنياً بخطيئة قد أرتكبها وهي، رغبته في اكتشاف سبب "تغير" الله تجاههُ، لكن ألم يكن أيوب يعرفُ أن الله "لا يتغير؟" وان كان قد تغير، فإن أفعال أيوب هي من تغيرت، بأفعاله الخارجية او الداخلية (القلبية)، لذلك نلاحظ ان الله في هذا السفر، لا يُجيبُ على أسئلة أيوب، "[2:38] مَن هذا الَّذي يُسَوِّدُ تَدْبيري بأَقْوالٍ لَيسَت مِنَ العِلمِ بشَيء؟"، وعوضاً عن ذلك فان الله يُذكره بأعمالهُ كخالق الكون، وبمعنى أدق، هل لأيوب إيماناً مُطلقاً بسيادة الله الكاملة وسلطانه على الكون؟ وهل يقدر أيوب أن يأخذ مهام الله؟ هناك صراع بين العقل البشري وإمكانياته، ومحاولة عقلنة كل الأمور الحياتية، وجعلها في خانة المعرفة.

والجواب الثاني يتطابق من هذا المنُطلق، "[5:42] كُنتُ قد سَمِعتُكَ سَمعَ أَمَّا الآنَ فعَيني قد رَأَتكَ". الإنسان الكتابي يختبر كل مرة علاقته بالخالق، وهي علاقة حسية بحته، لأن السمع والبصر هما من حواس الإنسان، ومنذ البداية الله يدعوا الإنسان إلى السمع.

ما يتكرر في أيوب، هو أعتقاد الإنسان أنه بدون خطيئة. واعتراف أيوب باكتشافه سرّ جديداً لله، ليس من جديد، لأنه كان قد سَمِع الله من خلال علاقته به من خلال ايمانه العملي المُعاش، لكن السؤال هو، هل كان نمو هذه العلاقة من ضمن إرادة الله الخالق؟ أم كانت بحسب إرادة أيوب؟ ام انها آنية، وليدة الوقوف وجهاً لوجه أمام الله؟ نستطيع أن نقول ان مواقف الانسان هي من تتغير وهو من يعكس نظرته من ذاته الى الله، وأيوب مثلاً، ربما في تجربة أخرى قد يطلب أن يلمُس ويجس الخالق؟ هذا هو الإنسان!

نكتشف من النص أن الإنسان يجعل من الله الخالق مصدر الخير والبؤس في آن واحد. تمسك الإنسان بالبعد الخارجي لعلاقته مع مجتمعه تجعله يُرضي المجتمع على حساب علاقته مع الله. أصدقاء أيوب هُم مَن كانوا يعتقدون بأنه يستحق كل الآلام التي حلت به، لكن ان اعتمد أيوب على إيمانه المطلق بالله، ووضع فيه كل ثقته رغم تنوع الآلام التي حلت به، فمن المؤكد انه كان ينجو من أشد مصائبه، بالثقة والأمانة التي كانت مصدر العلاقة بين الله وأيوب. لذا، نجد أن الله يختار أيوب في تقديم المُحرَقةً، عوضاً عن أصدقائه كشفيع، لأنهم اخطئوا في تعزيتهم البشرية.

تبقى ثقته (الله) بعبده أيوب ثابته، لكن متى سيكون هذا العبد (الإنسان) أمين وثابت في ثقته بالله الخالق؟ والسؤال الذي يتكرر دوماً، لماذا يجرب الله الإنسان البار؟ السفر يُجيب عن هذا السؤال بطريقة تُبرر أعمال الله، ولكن حسب العقلية الإنسانية ان الله لا يُجرب البار، لكن البار يُجرب من قبل الشرير. لذا فإن أيوب لم يكُن يعرف لماذا يجرب الله البار، وهذه الحقيقة كانت مؤلمة ومُحزنة له، لأنها تبدو له غير متوافقة إطلاقاً مع طبيعة الله العظيمة، التي تمقت الشر. لا شك في أن الله يعلم كل شيء، ولكنه لا يعلن ذلك للإنسان.

نستطيع أن نستنتج أن الإجابة الحقيقية عن هذه المشكلة جاءت من حياة أيوب، فهو الجواب الحي للمشكلة، وشخصيته هي خلاصة الدرس لأنه وقع في فخ البحث عن مصدر الشر، أولاً، وهو لم يرغب في معرفة اصول الشر خارج علاقته الإنسانية مع الله، ثانياً.